نفسى : قوة فى روحى وقوة فى جسدى ! »

وكان سباحاً ماهراً ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام هناك جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه وكان يمزح ويسميه « بلاج الرافعى » إذ قل أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطافين فى سيدى بشر غير الرافعى وأسرته

ولا يطمن فى قدرة الرافعى على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة ؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر ، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم

وللرافعى صورة طريفة نصورها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله فى زى أبطال الرياضة المشهورين : عارى الجسد بارز العضلات ؛ وددت لو حصلت على هذه الصورة !

وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها مسلسلة فى مجلة « المضمار » الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة

وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوته البدنية ، ومن أسباب قوته العصبية أيضاً ، ومن هاتين كان اصطبار الرافعي على العمل الشاق فيما يعالج من شئون الأدب

ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأن القدر أقوى من احتيال البشر !

« شبرا » محمد سعيد العريان

من رحلة الشتاء

فى مضارب عجيل الياور

شيخ مشايخ شمر

للآنسة زينب الحكيم

تركت بغداد فى مساء الاثنين ١٤ من مارس سنة ١٩٣٨ مستقلة القطار إلى كركوك والساعة التاسعة مساء، فوصلتها فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، ذلك لأن المسافة من بغداد إلى كركوك زهاء ٣٢٦ كيلو متراً ، وخط سكة الحديد هذه يمتد على ضفة نهر ديالة اليمنى ثم اليسرى ، وعرضه متر واحد ، ولا تتجاوز سرعة القطار عليه ٢٥ كيلو متراً فى الساعة . لأنه بنى على أسس واهية ، كالجسور الخشبية والقواعد الترابية . ولأن الأدوات التى استعملت فى إنشاء السكك الحديدية هناك لم تتغير منذ ذلك الوقت ، فقد بليت .

سيارة الرحلة فى كردستان
من الأسبوع الثالث من مارس إلى الأول من ابريل سنة ١٩٣٨

وإدارة السكك الحديد هى التى تقوم برعاية هذه السكك فى العراق، ولولا العناية التى تبذلها لكان سير القطر من أخطر الأمور ، ولأصبح السفر من جهات العراق النائية إلى بعضها عسيراً .

من كركوك أخذت سيارة إلى الموصل ، فقطعت ١٦٠ كيلو متراً فى جادات ولو أنها معبدة إلا أن المطر الغزير قد أتلف أجزاء كبيرة منها ، فكاد السير عليها يكون مستحيلاً .

بعد أن قضيت بضعة أيام فى الموصل رأيت فيها معالمها التاريخية ، والانشائية ، وجزءاً كبيراً من أطرافها (كبلدة تلكيف ، والشيخ عدى، والعمادية وغيرها) ، وبعد أن فرجنى على بساتينها الغناء ، ومبانيها الجديدة المشيدة ، وشوارعها المرصوفة الواسعة ، السيد خير الدين بك العمرى رئيس بلدية الموصل ، أخذت السيارة منها إلى معاقل قبائل شمر المتيدة .

كنت قد أرسلت خبراً للشيخ عجيل الياور برغبتى فى زيارتى معاقله،فلما بلغنى خبر ترحيبه واستعداده لارسال سيارةمن سياراته الخاصة الفخمة تحملنى من الموصل إلى خيامه ، شكرت له ترحيبه ، واعتذرت عن قبول الذهاب فى سيارته ، لأن سيارتى كانت حاضرة . فقبل العذر عن هذه ، ولكنه حتم أن يستقبلنى رجاله فى مناطق معينة من الطريق ، وأن يصطحبنا دليل منهم إلى الخيام ، خشية أن نضل .

مدخل شارع الفاروق من مبدأ فتحته
وهو أحد الشوارع الانشائية الواسعة بالموصل

قمنا بالسيارة صبيحة يوم الثلاثاء ٢٢ من مارس ١٩٣٨ من الموصل ووجهتنا « تل أعفر » — وتل أعفر هذه قرية فى وسط الطريق الذى طوله خمسون ومائة كيلو متر بين الموصل ومضارب قبائل شمر بالشلقاط .

تقع هذه القرية على نهر دجلة الذى رأيت النساء يغسلن الأوانى والثياب على ضفتيه ، وأدهشنى طريقة غسل النسوة للملابس ، إذ تمسك كل امرأة مطرقة خشبية لدق الثياب . ولست أفهم الصلة بين إزالة الأوساخ من الثياب وبين دقها بذاك المضرب الخشبى وهى موضوعة على صخرة سوى تمزيقها ، مالم يكن لديهن سر لانفهمه ! !

فى تل أعفر أبى مستقبلونا من رجال الشيخ عجيل الياور إلاأن نشرب الشاى. فأجلسونا فى شيخانة(مشرب الشاى)بسيطة، أحسن الموجود فى القرية ، وغير مزدحمة بالناس . بعد دقائق قدم لنا الشاى الأسود فى كوبات صغيرة ، وكان طعمه مثل الماء المذاب فيه (الشبة) للثقيلة جدا

ثم واصلنا المسير ، ومعنا دليل الشيخ . أما عن رداءة الطريق فحدث ولا حرج ، المطر المنهمر يكاد يغرق السيارة بمن فيها ، أما العشب الأخضر النضر على جانبى الطريق ، والأزهار البديعة الألوان ، المختلفة الأنواع ، فتسبح كلها فى لجج متموجة . وظهر الجو كأنما خيم عليه ضباب متكاثف ، إذ يسمع تساقط المطر ولا ترى وحداته لغزارته وسرعته

منظر من مناظر الطبيعة العظيمة الهائلة ، فضاء فى فضاء لا يحجب النظر فيه إلا الأفق ، ويجرى الانسان فيه بقوة العلم والاختراع . فلا ماء المطر على غزارته بمستطيع إطفاء نار السيارة ، ولا السيارة تكل من مسابقة العواصف والمطر ، ولا إرادة الانسان بمستضعفة حتى تبلغ المرمى

الطبيعة عاصفة ثائرة . والانسان جبار لاينثنى عزمه متى عزم

هانحن أولاء نترك الطريق الطينى البالل بعد أن سرنا عليه ساعات ، ويشير الدليل بالسير على مروج خضراء غارقة فى الماء ، وبدأ الخفاق يدق بقوة وسرعة ، فالعشب مرتفع ، ولا يؤمن معه العثار ، ولكن من ذا الذى يجرؤ أن يزيد من مخاوف السائق الكردى التعب ، الذى هدته وعورة الطريق ورداءة الجو ؟ !

سيرى على بركة الله أيتها الجارية ، وأى بركة تحدث لها ، إذا كان عليها أن تصطدم فجأة بسيل جارف كون نهراً طالياً ؟! إن للبادية لمخاطر ومفارقات ، وإن لرجل البادية لنظرا

أشار الدليل على السائق بتحويل اتجاهه ، وبثق الأنفس خرجنا من المأزق سالمين

هاهى ذى النفس تنتعش ، والصدر ينشرح ، فقد ظهرت بعض بيوت الشعر ، وفى مقدمتها الخيام البيضاء — خيام العلم والنور ، والكرم والضيافة — لقبيلة الشيخ المشايخ

وهاهى ذى عيون البدو ترمقنا من بعيد ، وسيارة الشيخ تسرع فى استقبالنا ، ونصل إلى المضارب أخيراً ، فيزيل عناءنا بشر الشيخ وسجاياه العربية البدوية الكريمة : أهلا وسهلا ، هاهو ذا المطر قد كف ، والسماء بدأت تتكشف ، والعاصفة أخذت تهدأ . إن فى مقدمكم الخير بنزول الغيث فما أكرمه من مقدم . فسلمنا عليه وجلسنا خارج الخيام ، على مقاعد من قماش ذات مسندين وظهر من الخشب (مثل ما تستعمله على ظهر الباخرة أو فى الحديقة) فقلت فى نفسى : غريب هذا فى هذه البيئة ! وما أسمع إلا والشيخ صفوك بن الشيخ مجيل الياور وولى عهد ملك البادية يقول : —

You are welcomed. We are very happy to see you here.

« مرحباً بكم . إننا سعداء جداً برؤيتكم هنا »

قال ذلك فى نطق صحيح ولهجة انجليزية أمريكية . فذهلت ! شيخ بدوى قح ، يرتدى اللابس البدوية والعقال ، وبينه وبين الحضر أميال وأميال ، أو إن شئت فقل بينه وبين العالم والحياة أجيال ، يكون هو هذا المتكلم المداعب فى لباقة ولياقة !؟ يا ما فى الدنيا عجايب !

وقلت : إنها مفاجأة ظريفة من رجل الصحراء ، فاستدرك مسرعاً وقال : بل من رجل البادية

قلت : وما الفرق بين الصحراء والبادية أيها العلم اليقظ ؟

قال : إن الصحراء مجدبة ورمالها أخشن وتراكمها أسمك . أما الأرض هنا (أى بين النهرين دجلة والفرات — موزوبيتميا Mosoptamia) فمن أخصب بقاع العالم

حقا لقد رأيتها كلها مغطاة بالعشب المترعرع بقوة ، ونبات القمح والشعير حسن النماء ، وشجر الزيتون مورق مورق ... انصرفت إلى تفكيرى الخاص برهة ، أعلل سبب تحول هذه الصحراء إلى بادية ممرعة . وأسعفتنى معلوماتى الجغرافية ، فتبينت أنه الرافدان بما امتازا به من روافد طمية سميكة إبان الفيضان ، ولعدم تنظيم تصريف مياههما لقلة مشاريع الرى ، تفيض هذه المياه المتدفقة عاماً بعد عام على المساحات الشاسعة جداً فيما بين النهرين وعلى جوانبهما الأخرى . فتتشبع الأرض سنوياً بالمياه ويمتزج رملها بالطمى ، فأصبحت بقاعاً من أخصب وأصلح البقاع الزراعية فى العالم

ولذلك لون التربة أغبر بين الصفرة والحمرة والسمرة ، فلونها مخالف لما تراه فى صحراء ليبيا أو قرب غزة والعريش مثلا

هذا تصحيح من رجل البادية عرفه بالتجربة العملية وليس من الكتب ، ورجل البادية ولو أنه محدود التفكير إلى حد كبير لبيئته وظروفه ، إلا أنه كما لحظت حاد البصر نافذ البصيرة متوقد الذكاء كريم ، له استعداد قوى للتقدم ، ولكنه شديد الرضى سريع التسليم

منظر من حديقة الطيارين بالموصل
ويرى السيد خير الدين بك إلى اليمين . وهو رئيس البلدية وله الفضل فى الانشاءات الحديثة بالموصل

ومن أهم ما لفت انتباهى اعتماده على القدرة الإلهية ، أو على من يتوسم فيه رعاية مصالحه ؛ وكل البدو فى هذه المناطق خاضعون للنظام العشائرى البحت ، ويأبون تدخل الحكومة فى فض مشكلاتهم من أى نوع ، ولو فرض وكان لبعضهم مشكلات تصل إلى المحاكم فى بغداد أو غيرها مثلا ، فشيخ مشايخ شمر أو ابنه ، هو الذى يمثل هؤلاء أمام الجهات المختصة ويدفع عنهم ويفض هذه القضايا . ولهذه الاعتبارات وأشباهها تخضع القبائل لرئيسهم خضوعاً تاما ، وهو يسهر على مصالحهم . ويسرنى أن أذكر بعض المشروعات الاصلاحية التى رأت فعلا بين هذه القبائل البدوية فى المعاش [illegible]

نجيب الحكيم